أثر القصص القرآني على النصوص الروائية للطاهر وطار

أ. رقية لحباري

lahreguia@gmail.com

قسم اللغة العربية،

جامعة باتنة

ملخص:

تهدف هذه الدراسة التي تتبع مسالك التناص مع القصص القرآني في النصوص الروائية للطاهر وطار، بدءا من "الزلزال" إلي "الولي الطاهر يعود إلي مقامه الزكي"، على امتداد الأزمنة التاريخية في النص والمرجعي ورسم أبعاد الافتراض والتسامي للراهن الاجتماعي والسياسي لمراحل مختلفة في مفاهيمها الإيديولوجية بأنظمة متميزة في السياقات السردية.

وأسفرت الدراسة عن جملة نتائج هي افتراضات دلالية تتسق مع مبدأ تتبع التفاعلات النصية، وتتمحور حول انجذاب معرفي مؤسس للذاكرة القرائية للمؤلف، وقد تجلى في المستويات المتباينة للبنى السردية لكل نص روائي، وفي المعطى العام للنص بالنظر إلى الأنظمة السياقية المختلفة في أنسجتها التفاعلية مع المرجعي.

Résumé :

Le but de cette étude est de tenter de déceler les manifestations du concept d'intertextualité dans les écrits "historiques" de Tahar Ouetar. A travers des œuvres telles que "Séisme" et "Le saint Tahar revient a son bien sacré", nous essaierons de jalonner le temps historique qui façonne les modalités de la production littéraire.

L'étude débouche sur un ensemble de suppositions qui s'articulent a l'évolution stylistique du produit textuel. L'attrait que suscite la lecture du texte historique est dû à l'architecture du récit et à un usage judicieux des références.

مقدمة:

تحمل النصوص الروائية للطاهر وطار، بدءا من "الزلزال" إلي "الولي الطاهر يعود إلي مقامه الزكي"، شبكة من التفاعلات الناتجة عن أصوات مختلفة ومتناقضة، تمتلك بعض السلطة حين تتيح المجال لرؤية لها بعد أصيل في مخزون الذاكرة الإنسانية، وهو ما يحيل إلي التناص مع القصص القرآني، الذي يتم ممارسات تركيبية، ترمم شروخ الراهن الجزائري السياسي والاجتماعي والثقافي، بمحاولات تقرب الفعل من الفعل وتنأى به أحيانا.

وتتجلي أهمية وفضل المخزون المعرفي التراثي المتأصل للمؤلف، الذي يجعل النص قابلا لبنى ودلالات تبرر أفكاره ومواقفه، عبر مشاهد تصويرية، نعرضها بالقراءة عبر تقنية التناص التي تكشف التجاذب المعرفي إلي الكون الإبداعي العام بإنتاج يتراوح بين مستويات متباينة، وتحمل الشفرات الخاصة التي يتميز بها المؤلف، حتى كأنه يخلق حوارا مهموسا بينها، ينتهي إلي نسيج يحمل المفارقات المتوقعة وغير المتوقعة، ويسعى بكل دلالاته إلي تحريض الذهن على كشف ما خفي فيها، ويتبين معالم الواقع والمتخيل، إذ الذاكرة القرائية للمؤلف لا تنفصل بالضرورة عن كل هذه المعطيات، وتضع القارئ لترصد معلم الصور والطروحات الوافدة والمعبرة عن أزمة النقد.

مشكلة الدراسة:

تتمحور مشكلة الدراسة حول الجدل القائم حول استقلالية النص أو اتكائه على نصوص أخرى، ومدى فعلية التراث المعرفي في امتداد الدلالات، من حيث منابعها في القصص القرآني، وحضورها في النصوص الروائية، لتنتهي إلي جملة أسئلة منها: هل النص إنتاج ذات واحدة؟ أم تشترك في إنتاجه ذوات مختلفة؟ أينبعث منه صوت واحد؟ أم تنبعث فيه ومنه أصوات متعددة؟ وعبر ذلك: هل كان النص المرجعي عوزا معرفيا، لسد فراغات متفاوتة في المساحات النصية؟ أم ضرورة فنية تمنح النص بعض القبول الإبداعي؟ أم كان نتاجا للذاكرة القرائية للمؤلف في عبورها بهامش الموروث الإبداعي العام؟

أهمية الدراسة وأهدافها

تتضح معالم أهمية الدراسة في عرض بعض الفواصل لتتبع التركيب المعرفي للشخوص، باعتبارها محاور تقوم بها النصوص الروائية، وتقف عند التأرجح القيمي في تشكيل الوعي الديني بالعودة إلي المرجعي، أهو قناعة و مبدأ أو مجرد بنية تساهم في إثراء الفكرة؟ أهي معادل موضوعي لراهن متشعب الأزمات، أو محاولة لخلق شخصيات مخالفة للمألوف الواقعي؟ لتوضيح السلبية في الانزواء والتراجع، وتمثل السلوك الهادم للبنية الفكرية والاجتماعية.

ومن ثم يكمن هدف تتبع التناص مع القصص القرآني، في الكشف عن بعض الوثائق المعرفية في النصوص الروائية، في رسمها لمخططات واقعية وافتراضية، لمراحل زمنية متتالية ومختلفة في مفاهيمها الإيديولوجية ومعطياتها الاستهلاكية والإنتاجية في محاولات لتحديد أبعاد الجدل القائم بين الواقعي والمتخيل.

منهجية الدراسة:

اخترت التناص بالقراءة والتحليل للبعد المعرفي، وتجاوزت التفسير اللغوي للنص، والطروحات الوافدة، لأنها تعبر في كثير من الأحيان عن أزمة النقد، أكثر مما تتناول الأعمال الأدبية، وأخذت من المصطلح ما يبرر للنص الروائي امتداداته بالقراءة والتحليل للنصوص، إذ تم استقراؤها والوقوف عند كل ما يبدي أو يوحي أو يشير إلى القصص القرآني، معتمدة على الروايات والقرآن الكريم، وبعض كتب التفسير والدراسات النقدية التي تعين على إجلاء الرؤية، إذ وجدت مساحات تحمل على إلغاء التأني للكثير من الفواصل، وتبين أن ممارسة التأليف عملية خاضعة للمخزون المعرفي الذي يمتلكه المؤلف ويضل متواجدا ببصماته في البنى السردية.

أولا، "الزلزال" مبررات حضور القصص القرآني عند " بوالأرواح"

1- بوالأرواح؛ يدعو بإفناء أهل المدينة:

يدعو بوالأرواح أحد أولياء قسنطينة، لحمايتها من الخطر الذي يتهددها، "يا سيدي مسيد... إرأف بالأبرياء الذين عليها، وبعباد الله الصالحين الذين فوقها...

وأرحها من الرعاع الذين يدنسونها... سلط عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل."[1]

إن هذا الدعاء ينفتح على النموذج المرجعي، للفضاء الجغرافي لمكة المكرمة، ومحاولة هدم البيت بها، إذ ينزاح فيولد عملية استكشاف الأبعاد التاريخية لحضور المدينة المكثف من خلاله، فالبيت الحرام الذي أراد جيش أبرهة هدمه، أرسل الله عليه من الطير ما أهلكه، وهي نعمة غمر بها الله أهل حرمه – على وثنيتهم – حفظا للبيت ،[2] ومن ثم فاستحضار المرجعي بكثافة معالمه التاريخية الواقعية، واستدعاء نصه من القصص القرآني،[3] يحقق ترجمة الردود الانفعالية لبوالأرواح؛ ردود الرغبة في إلغاء قوانين تأميم الأراضي وفق التسيير الاشتراكي، فكأن هؤلاء الذين سنوا القوانين ويسعون إلى تطبيقها يهدمون وجودا محرما عليهم مسه، وليس من سبيل لكف مسعاهم غير تدخل قوى خارقة؛ لم لا تكون إرادة الأولياء.

2– الايديولوجيا الاشتراكية؛ طوفان:

إن تواصل المد الاشتراكي وانعكاس مواثيقه سلبا على مصالح الأثرياء، جعل الفاعل يمر بأزمات توهم وفجيعة، تتولد بفعل ما يراه قهرا اجتماعيا، فتختنق عنده الرؤى، ويتنامى بداخله الرفض إلى حد الحلم بأن "يتجمع الماء ويتجمع، ويصعد ويصعد، تهوي الأشجار وتتذاوب المباني الطينية، تتفكك الأكواخ، يمتلئ الجرف، ويحدث الطوفان".[4]

والتوليف بين موقف الفاعل إزاء سكان المدينة، ومآل قوم نوح – عليه السلام – يريد به الكاتب تجسيد حجم معطيات الثورة الإيديولوجية، التي تقصي الفاعل واهتماماته من فضاء تحركاتها، واكتشافه مدى انتكاسه بعد سقوط رؤاه، جعله يرى هؤلاء ناكرين منطق الحياة التي تحفظ قدر كل فرد، فلا يتوانى عن الدعاء على من

---

[1]– الطاهر وطار، **الزلزال**، ط3، (الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1984)، ص.47.
[2]– سيد قطب، **في ظلال القرآن**، ط 12، (لبنان: دار الشرق، 1986،) ص.3974، وأيضا انظر، أحمد مصطفى المراغي، تفسير المراغي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي دت)، ص ص. 241– 242.
[3]– سورة الفيل، الآية 1– 5.
[4]– وطار، الزلال، المصدر السابق، ص. 163.

تسبب فيما آل إليه؛"يا ربي الفتنة والزلزال والوباء، ولا تذر لهم باقية، واغفر لي ولآل بو الأرواح".[1]

إنها إشارات تضافرت لتستحضر دعاء نوح – عليه السلام –: "إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلا تَبَارًا"،[2] فهو الإسقاط القصدي على سكان المدينة؛ الذين يرى فيهم الفاعل متربصين بممتلكاته، بفعل قوانين جديدة تهدد وجوده، ووجود من يأمل أن يكون من حماة ثرواته"آل بو الأرواح"، فلا يملك غير الدعاء على هؤلاء؛ لأنه يفقد مبعث سلطته التي توشك على السقوط.

وما يزال الكاتب يحرك التراكم التخييلي في حدث الطوفان، فيسقط مشهد صراع ابن نوح مع الفاجعة المآلية، على مشهد للفاعل وهو يصارع زخم الأفكار الجديدة؛ "من هذا التيه، هل انحدر؟ هل أصعد؟ هنا التيار يسير في جميع الاتجاهات؛ يصعد وينزل...، هنا قاع النهر، قاع المحيط، يتعرض لضغط الدفع من جميع الجهات، فيصعد وينزل ويتقدم ويتأخر، يحمل معه الطين والرمل والحصى... ويروح ويتلولب في مكان واحد".[3]

يمتن الكاتب تشكيل المشهد، بإحالة تصويرية لمعاناة ابن نوح – عليه السلام – وهو على شفا الطوفان، فما الانتهاج الإيديولوجي الجديد، إلا طوفانا يأخذ كل عوالق الماضي، و هذا يجلي مآل حمولة المعايير المسبقة للاستمرارية عند الفاعل، التي اكتسحتها المعايير الجديدة.

3- لعنة الرفض:

إن استقطاب المرجعي لتفعيل المشهد الذي يحركه الفاعل – بوالأرواح – بكثرة صداماته مع راهنه، ومن ثم كثافة انفعالاته، يسير وفق منطق اللعنة؛ فمواقفه الرافضة لمس مصالحه، جعلت المرجعي المستدعى بتوليف أو مفارقة؛ متنفسا لغيظه من الآخرين مجسدا حدة رفضه، وامتلاء أناه بسلطة الماضي.

---

[1]- المصدر نفسه، ص. 201.
[2]- سورة نوح، الآية 27- 28.
[3]- وطار، الزلزال، المصدر السابق، ص. 203.

فهو يخاطب أحدهم "عمار البناي"، بقوله:"ألا تبت أيديكم"،[1] كأنه بذلك يستعيد إحساسه بوضعه المتميز، الذي يبدي الآخر أمامه دنيئا بموقفه، أمام وعيه هو بقيمه الدينية. وبحدة الشد الانفعالي، يعنف زوجتيه اللتين حشرتا إليه في ليلة واحدة؛ "أنا الشيخ بوالأرواح... أنا ربكما الأعلى، ما أبيحه مباح، وما أحرمه حرام... أنا صاحب الرغبة المطلقة".[2]

إنه امتصاص لصورة الجبروت عند فرعون موسى، وتحويل للموقف، كأن المؤلف يحدث المعادلة التي توضح المعيار القيمي في سلوك الفاعل، بفعل حوارية المرجعي في حادثة أبي لهب، وفي موقف فرعون من قومه، فالفاعل يتموضع في حيز يسمح له ببعث بعض سلطته المتآكلة، لكن مع طرفين لا يملكان حيزا فاعلا في فضاء التغير الإيديولوجي سلبا أو إيجابا، بخلاف الوارد في المرجعي.

وحالات التوهم والفجيعة التي يمر بها الفاعل، تجعله يرى التغيير أخدودا؛ "عميق، عميق الأخدود"،[3] "تأمل الجسر و الأخدود الذي تحته"،[4] "الأخدود يعمق من حولي"،[5] و تلك صورة للانهدام في صورة الفاعل، يحاور بها المؤلف القصص المرجعي مع الإسقاط القصدي للنموذج على رؤى الفاعل والراهن الذي يهدد وجوده، ومن ثم كان حضور القصص القرآني القصدي، في سياق تبريري لمفاهيم إيديولوجية لمرحلة تاريخية فاصلة في بناء أرضية للمجتمع الجزائري، تتكاثف الجهود لتمتينها، لكن الرؤى المصلحية تختلف من فرد إلى أخر.

ثانيا، رسالة علي الحوات: في "الحوات والقصر"

1- الصمت:

ينمي الكاتب شخصية علي الحوات، اعتمادا على أنساق معرفية، تمنحه أهلية الرسالية، بغزارة المخزون الفكري، وتكثيف تجلياته بتميز يلبسه قداسة الحضور، وضمن جزئية مرحلية، في رحلة الفاعل، ذات الطابع السكوني الإعجازي،

---

[1]- المصدر نفسه، ص. 55.
[2]- المصدر نفسه، ص. 220.
[3]- المصدر نفسه، ص. 170.
[4]- المصدر نفسه، ص. 171.
[5]- المصدر نفسه، ص. 184.

والمنظمة وفق محاذير التحدي، " دخل القرية ومعه السمكة، و"لم يرد على سؤال أحد، واتجه مباشرة إلى كوخه حيث قضى بقية ليلته"،[1] وهو تعالق مع مجموعة من وقائع قصص زكريا – عليه السلام – لما أوحى إليه ربه، أن سيرزقه ابنا، وكانت آيته أن لا يكلم الناس ثلاث ليال،[2] فالصمت هو مستوى التآلف، لما يفيض من قناعة وعزيمة وشكر، وقبل ذلك تحقق الرغبة الحلم؛ الابن الذي يعني الاستمرار، والسمكة المعجزة التي تعني تواصل الخير.

2- مهمة السحر:

وعلي الحوات؛ يدخل القرية الثالثة، يحاط بجملة تكهنات، من طرف أحد أفراد الرعية، وهو يعتزم الاستمرار في رساليته، إذ يطرح أمامه إشكالية أن يتهم بالشعوذة والسحر،[3] وهو استنطاق للمرجعي؛ مما تعرض له موسى – عليه السلام – وهو يدعو الناس إلى الإيمان بوحدانية الخالق، فرمي بالسحر؛ "قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى". [4]

فالمؤلف يقصد إمداد رافد التميز الرسالي للفاعل، في تواصله مع قوى تسعفه وتمده العزيمة، شأنه شأن موسى – عليه السلام – وحصار الجحود ضارب حواليه، كان ذلك يضفي ملمح المعجزة على الموقف.

3- قرية الخطايا: الفعل المباح

والمؤلف يتابع رحلة الفاعل – على الحوات – بين القرى، يتشرب من القصص القرآني؛ ويستعير بعض ظواهره بإيحاء يحرك النظام الداخلي للنص، في المرحلة الرابعة من الرحلة ومحطتها قرية بني هرار؛ "التي دعا عنها نبي لم يتمكن من تبليغ رسالته؛ ألا يسكنها غير لقيط، أثيم حرب من قومه، فيه الرذائل السبع والعيوب السبع... قد يفحش شيوخهم، على مرأى من نسائهم وبناتهم... ولا يرتفع أحد إلى مستوى كبائرهم."[5]

---

[1] – الطاهر وطار، **الحوات والقصر**، ط2، (الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984)، ص. 30.
[2]– أحمد بهجت، **أنبياء الله**، ط7، (بيروت: دار الشروق، دت)، ص.305.
[3] – وطار، الحوات...، المصدر السابق، ص. 49.
[4] – سورة طه، الآية 57.
[5]– وطار، الحوات...، المصدر السابق، ص ص. 54– 55.

وبعملية "تحويل وتشرب، استيعاب وتمثل"،[1] يحضر المرجعي لقصة لوط – عليه السلام – وقومه بزخمها التناقضي؛ سمو فكر لوط وبهيمية قومه؛ " وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَاسَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ إِنَّكُم لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ،"[2] وهؤلاء هم أهل سدوم[3] الذين كانوا يقطعون الطريق على السابلة، ولا يستقبحون قبيحا، ولا يرغبون في حسن ويبتدعون من المنكرات ما لم يسبقهم إليه أحد من خلق الله.[4] من ثم تحدد هوية القرية، وظلامية

أفقها الفكري، وهو تركيب تصويري لبعض أفراد المجتمع، مع التاريخ الماضي، يوقظه ليعطي نموذجا لواقع محتمل، ببنيته التحتية، بما فيها من انهزام، وما تعكسه من فاصل بين رؤى الفاعل، والتكالب الوحشي لهؤلاء بإشارات تآلفية، كأن المؤلف في ذلك توخى أمانة نقل التاريخ، كسبيل لبيان تصوره الإيديولوجي.

4- الرسالة:

والفاعل يواصل مروره بالقرى؛ ناصحا وحاملا دفاعا عجائبيا،[5] ويجتمع كل هؤلاء مؤمنين بغايته؛ يستحضر مشاهد من رسالية عيسى- عليه السلام – منذ بدأ بإرشاد الناس ومداواتهم، بما لم يسبق لهم عهد به؛ بدأ بكفر ناحوم، إلى أريحا، إلى صعوده الجبل وحيدا، فمشيه على ماء البحر إلى نواحي صور وصيدا، إلى الجليل، إلى تخوم اليهودية، ثم هو يائس من هذه المناطق لعدم إيمانها برسالته، رغم ما قدمه من معجزات منفعية لها.[6]

إن محاورة المرجعي المقدس، من بؤرة الحكمة والمعجز، بإشارات مركزة، كشف خصوبة وعي الفاعل، بقابلية تجاوبه مع كل متغير طارئ، وقدرة انفلاته من حالات الاستيلاب المتكررة. فالمؤلف خلق نموذجا تخييليا بالتحوير؛ فإن كانت رحلة

---

[1] – بشير القمري؛ **شعرية النص الروائي، قراءة تناصية في كتاب التجليات**،(د م ن: شركة البيادر، دت)، ص. 70.

[2]– سورة الأعراف، الآية 80 – 81.

[3]– سدوم، مدينة بأرض غورزغر، بمنطقة البحر الميت الممتدة على الحدود الأردنية الفلسطينية، لمزيد من المعلومات، انظر: ابن كثير، **قصص الأنبياء**، ط1، (بيروت: دار ابن حزم، 2002)، ص. 190.

[4]– عبد الوهاب النجار، **قصص الأنبياء**، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، دت، ص ص. 112-113)، وأيضا انظر، بهجت، المصدر السابق، ص. 103.

[5]– وطار، الحوات...، المصدر السابق، ص. 57.

[6]– النجار، المصدر السابق، ص ص. 408- 412.

عيسى- عليه السلام – انتهت به إلى اليأس من تبليغ رسالته، فإن الفاعل انتهى به الأمر إلى تقويض أمر من منعوا استمراره ومن ثم؛ لم يكن التناص "مجرد تحويل أو صنعة قصدية لأنساق وأساليب، وإنما كفعالية قوامها امتلاك حوافز تغيير النماذج"،[1] فامتصاص المنطلق في أحداث لها مساحاتها المعتقدية، يبعث ديمومة الحيوية فيها، إذ ينتهي إلى رفض الهزيمة، وتلك إشارة ضمنية لمحاربة فساد السلطة.

5- علي الحوات؛ نموذج الرسالي:

تحقق شخصية الفاعل حدا من التآلف مع شخصيات الأنبياء – عليهم السلام – فهو بثقل مهمته وتركيبته التخييلية، يحقق نظاما من التسامي بالفعل؛ فهو نبي آخر، رسالي، يمثل موقفا انتقاديا لمجتمعه، ويسعى لإحداث معايير جديدة به، كأنه نسج لطاقة وبشاعة الأمكنة بقصدية تمكن من تفرد حضوره. فكانت الرحلات إشعاعات يلتمس منها قدرة المواصلة، بعجائبية تفضي إلى نموذج له من كل رسالي موقف وصفة، يسعى به المؤلف إلى إيجاد معادل تخييلي.

ثالثا، إقحام المحتمل في "عرس بغل":

1- وهم الارتقاء لحظة السقوط:

يستدعي الكاتب المرجعي بمواقف من قصص الأنبياء – عليهم السلام – لتكون ردود فعل، للوقوع الانهزامي، الذي انتهى إليه أحد طلاب الزيتونة، بعد محاولة إصلاحية في الماخور، بدأت بخطبة توجيهية وما استمرت، إذ الوقيعة دبرت، ووجد نفسه مستسلما في إحدى الغرف، يردد بالنص؛ "ما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم"، "يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم"، " باسم الله مجراها ومرساها"[2]

فتكثيف استحضار المرجعي بشكل مناصات داخلية يحمل تداعيات، فيها من المفارقة ما يبين أن الفاعل، شخصية تحمل تراكمات معرفية لم تنظم، فيكون خطيبا مصلحا، فكان خطيبا مستسلما للخطيئة؛ يرى في خطيئته محنة لا تختلف عن محنة

---

[1] - القمري، المصدر السابق، ص. 73.

[2] - الطاهر وطار، **عرس بغل** (الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1982)، ص. 50.

عيسى – عليه السلام – وهو يصلب، ومحنة إبراهيم– عليه السلام – وهو يرمى في النار، ومحنة نوح – عليه السلام – وهو يجابه كفر قومه ويستعد للرحيل. وقد يكون وهم الشعور بقدرة التغيير، قد جعل من الفاعل يعتقد في نفسه؛ تعادلا مع أصحاب الرسالات السماوية. ومن ثم فاعتباطية حضور المرجعي، تجعل منه لوازم تعبيرية دون ظلال معرفية.

2- اعتناق الخطيئة:

يمتص المؤلف بؤرة التفاعل، في حدث أصحاب الأخدود، المتمثل في اختيار الموت بالسقوط في النار، عن اختيار وقناعة، ليولد منه تساؤلات مؤداها واحد؛ السقوط عن قبول في دوامة الخطيئة، ثم البحث عن مبرر لذلك؛ "عندما تكون واقفا في موضع، على حافة جرف مثلا، ويهوي بك ذلك الجرف. من تلوم؟ هل تلوم نفسك، أو تلوم الجرف، أو تلوم من جعله يهوي؟ ماذا تقرؤون في جامع الزيتونة؟"[1] والمفارقة تجلي غائية الكاتب، في إحلال الخطيئة بالمجتمع، كمسلمة اختيارية إجبارية في آن، تفرز إدانات قيمية، لها أوجهها المختلفة.

رابعا، سلطة الفكرة في "العشق والموت في الزمن الحراشي:"

1- المولد المقدس للاز:

يحرك المؤلف اللاز- الفاعل- المحرك في النص، بحضوره وغيابه، بامتصاص بؤر القصص القرآني، إذ يتعمد أدقها إثارة، وأبلغها إعمالا للفكر، فهو يؤلف بين مولد عيسى –عليه السلام– ومولد اللاز المختلف فيه عند الأهالي، الذين اعتقدوا أن؛ "سيدي عبد القادر، خرج على أمه في الليل. أيقظها ثم أمرها بالنوم فعل ذلك ثلاث مرات، ثم هتف فيها: أنت أمي وأم جميع الأولياء والصالحين. لم يطل بها الوقت حتى ولدته."[2] والمرجعي الذي انسلت منه هذه الدلالات الرامزة، يحقق بعض التوافق الآني بين مولد اللاز ومولد عيسى – عليه السلام – [3] فحضور اللاز الممتد

---

[1]– وطار، المصدر نفسه، ص. 64.

[2]– الطاهر وطار، **العشق والموت في الزمن الحراشي**، ط2، (الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1984)، ص. 12.

[3]– النجار، المصدر السابق، ص ص.377،375، وانظر، ابن كثير، المصدر السابق، ص. 453.

إلى الجزء الثاني،[1] يولد علاقات جدلية في ميلاد إيديولوجية يعتنقها أفراد من المجتمع، وبرفضها آخرون، ومن ثم كانت ظلال المرجعي المقدس افتراضا تخييليا مغريا، يجعل من الفاعل بؤرة استقطاب لمحيطه.

إن المؤلف بإضفائه هالة التطهر و النقاء على "مريانة"، ومن ثم على مولد اللاز، يعيد بناء شخصية الفاعل بمفارقة تكثيفية، تستحضر نسق القصص القرآني، بمتابعة مراحل مولده؛"بقي في بطن أمه عدة قرون. لا. تسع سنين. لا. سبعا. لا. سنة و تسعة أشهر. لا. بضعة أشهر لا غير. ستة أو ثلاثة أو شهرا واحدا، اللاز ولد أسبوع وليلة.

اللاز ولد كن فيكون.

قال لها سيدي عبد القادر، أنت أمي، و دخل بطنها وخرج رضيعا يبتسم".[2]

إن تمتين الحدث بالتناص مع المرجعي، وبتباين الآراء في حمل مريم –عليها السلام –[3] يجلي بعض التماثل بين الحدثين بمعطياتهما، مراعاة لنسبة التحجيم بينهما، لكن الكاتب يثير صخب الفكرة، كأنه يريد من القارئ الاستعداد الدائم لخرق المألوف؛ فبعد معادلة سيدي عبد القادر بالروح، يطرح إشكالية التناسخ لدى الهنود – وذلك طرح آخر– والجدل في حضور اللاز قائم أيضا بامتصاص الحدث في المرجعي ذاته، برفع عيسى– عليه السلام "إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ"،[4] فكأن رفع عيسى – عليه السلام – لمراقبة فعالية دعوته من بعيد، تعادل غفوة اللاز المصحوبة بصحوة مميزة، راقب خلالها، فعالية القيم الإيديولوجية وتحقيقها في الواقع.

---

[1]– تعد رواية العشق والموت في الزمن الحراشي جزءا ثانيا لرواية اللاز.
[2]– وطار، العشق والموت...، المصدر السابق، ص. 12.
[3]– النجار، المرجع السابق، ص. 378.
[4]– سورة آل عمران، الآية 55.

2- الطوفان والدعاء:

بإشارة تأملية تحرض الذهن إلى فك الشفرة القائمة بين الفاعل – اللاز- ونوح – عليه السلام في حدث الطوفان من جهة، وبين الطلبة الحاملين للايديولوجيا الإسلامية ونوح في دعائه على الكافرين من جهة أخرى، فتكثيف الخطاب الديني بتحويله خطابا إيديولوجيا، هو ما قصده المؤلف عبر وتيرة نظام للطرفين، فورود التواصل خاصة بين جميلة والفاعل في مساحات نصية عديدة، تأييد حتمي لقيمها الإيديولوجية، ومن ثم فالحياد عنها قد يثير غضبه؛ ومن يدري أنه لا يجلب على الدنيا ما جلبه غضب سيدنا نوح – عليه السلام – على قومه.[1] إن استدعاء المرجعي من حدث الطوفان الذي أهلك قوم نوح – عليه السلام – الذين كفروا،[2] استثمار للأفق الفكري لحاملي الايديولوجيا الاشتراكية، فيمنحونه السلطة الإجرائية، بصفته يمتلك من إمكانيات الرضا والغضب ما يؤهله لذلك، وينعكس المنحى، فيصبح هؤلاء المناصرون للاز هم الذين يدعو عليهم حاملو الايديولوجيا الإسلامية باستدعاء الدعاء الملفوظ نصا لنوح – عليه السلام- على قومه الظالمين؛ "**رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًاإِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا** ". [3]

فالمؤلف امتص من المرجعي، بؤرة الخلاص من الآخر، فيحيل راهن الثورة الوليدة التي تتصارع فيها الآراء المعرفية، إلى راهن إقصاء لبعضها، مصادرة واجتثاثا، ومن ثم كانت حمولة المرجعي استقصاء للنوايا.

3- الجريمة:

يلح الكاتب على استنطاق المرجعي في قصة قابيل وهابيل، فيعرض عبادات الهند الكثيرة، ومن بينها عبادة الغربان، "خاصة الغربان، و ما أكثر الغربان في بلادنا يا حبيبي، إن الناس يقدسونها، لأنها تستر موتاهم الذين لا يلحقون لحرقهم".[4]

إنه عرض يقاطع مشهد الأخوين؛ قابيل وهابيل، والموت قد طوى أحدهما، والغراب كان أحكم من الآخر،[1] كأن الكاتب يبرر صلة عيسى بالفتاة الهندية،

---

[1]- النجار، المرجع السابق، ص ص. 36 – 37.
[2]- المرجع نفسه.
[3]- سورة نوح، الآية 26 – 27. وانظر: وطار، العشق والموت...، المصدر السابق، ص. 131.
[4]- المصدر نفسه، ص. 60.

فكلاهما ينتمي إلى أرضية الجريمة الأولى والحاضرة دوما، كبديل للمعاملة السلمية، كما هي رغبة مصطفى في إنهاء حياة كل من يعارضه إيديولوجيا.

4- الإيمان بالفكرة:

تتراص مؤشرات تموقع الايديولوجيا الاشتراكية ، بتصوير يركز على الدافع والحدث في هذا النص؛ "كانت الأمور وقتها أعقد بكثير جدا... كمن يقف على حافة جرف كبير، في انتظار أن يلقي بنفسه، يتقدم ثم يتأخر، ينظر إلى الأمام، إلى الأفق البعيد، ثم إلى قعر الجرف، ثم إلى موضع قدميه، ثم يلتفت إلى الخلف، هل يلقي بنفسه أم لا. هل يفعل أم لا يفعل. هل يسلم في الحياة، في كل ما كسبه منها وما سيكسبه، إن ظل هادئا ممتثلا؟

إنها أسئلة محرجة، بالنسبة للإنسان

يغمض عينيه، آخر الأمر يفعل. يأتي الفعل."[2]

إن المؤلف يتبع تقنية، تهيئ لتقبل الايديولوجيا المطروحة، بديلا نمطيا يسير الراهن، فينهل من المرجعي في قصة أصحاب الأخدود؛ هؤلاء الذين آمنوا بعيسى – عليه السلام – فسار إليهم ملك اليهود ذو نواس، "بجنود من حمير، فلما أخذهم، خيرهم بين اليهودية والإحراق بالنار؛ وحفر لهم حفرة، ثم أضرم فيها النار، وصار يؤتى بالرجل منهم فيخيره... فمن استمسك بدينه ولم يبال بالعذاب الدنيوي... ألقاه في النار، وكان حولها يشرف على هلاكه."[3]

فالنصان يحملان أفقا فكريا مشحونا بالرؤى والمواقف المتآلفة، يريد الكاتب بها مماثلة اعتناق مبادئ الايديولوجيا الاشتراكية، باعتناق قيم إيمانية معتقديه، كضرب من الشرعية الوجودية للفكرة، ومن ثم كان المرجعي جزئية نظام لخطاب إيديولوجي، يسعى إلى التموقع اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا.

---

[1]- النجار، المرجع السابق، ص. 22.

[2]- وطار، العشق والموت...، المصدر السابق، ص. 186.

[3]- المراغي، المصدر السابق ، ص ص. 100- 101؛ وأيضا انظر: مسلم، **صحيح مسلم بشرح النووي**، (د. م. ن: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1981)، ص ص. 130- 132.

خامسا، تجارب المستشار: في "تجربة في العشق":

1- انقلاب المفاهيم:

يبقي المؤلف النص مفتوحا لتأويلات تثري تجربة الفاعل – المستشار – وتحيل إلى الذهول أمام معطياتها؛ بتوظيف إحالات تدفع إلى التأمل والسؤال؛ "فالنملة إذا تسببت في انقلاب القطار، تقول: يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم، ليحطمنكم سليمان وجنوده، وهم لا يشعرون.. ويشعرون."[1]

إذ انبثق المرجعي من نص القصص القرآني؛ " حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ"،[2] فغائية إسقاط النموذج الفعلي للحدث، على راهن الفاعل، الذي يشهد الانقلاب الجذري في المبادئ، يستقصي تعرية حقائق هؤلاء الذين لا وزن قيمي لهم في المجتمع. لكن المؤلف لا تهمه الحكمة في المرجعي، بقدر ما يسترفد منه ما يسد لحظات اللاوعي التي يعيشها الفاعل.

2- الفداء والبديل:

تنبثق حمولة المرجعي في دلالات جزئية، تفترض انصياعا كليا لإرادة أحد الطرفين، برضا يجلي صفاء النية، ورغبة من الفاعل – المستشار– في تأكيد صدق العزيمة، في علاقته بالعمود وأدائه لمهمته، فيستحضر النموذج المثيل بترتيب المفارقة ؛ "العاشق هو الذي يتخذ المبادرات، ليؤكد صدق التجربة، فيجر المعشوق إلى إبداء رغبة ما، ولو كانت مستحيلة فتكون برهانا ساطعا على الرضا التام... يحمل الرجل السكينة، ويبطح ابنه، ويروح يحز رقبته، تصديقا لحلم، تهزه البسمة، عند الساقية فيهب عقدا من عمره برعي الأغنام ثمنا لها".[3]

إن المتناص يتحامل على المرجعي في قصة إسماعيل[4] وقصة موسى[1] – عليهما السلام – هذا الأخير الذي ساعد الفتاتين في السقي، ولبى طلب أبيهما

---

[1]– الطاهر وطار، **تجربة في العشق**، (الجزائر: المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، 1989)، ص.18.
[2]– سورة النمل، الآية 18. وينظر؛ عبد الوهاب النجار، المصدر السابق، ص. 336.
[3] – وطار، تجربة ...، المصدر السابق، ص. 136.
[4] – سورة الصافات، الآية 102– 107. أدرجت في عنصر الاغتيال.

بالزواج من إحداهما مقابل خدمته لسنوات عشر، إذ يحول دلالاته الأصلية لدفع فاعلية التراكم المعرفي، وتكثيف دوائر اللاوعي، ومنحنيات الانفصال التي جعلها نظاما للنص، وفق نسيج لمتناصين تجمعهما الرغبة والتواصل. ومن ثم كانت مفارقة امتصاص المرجعي، فتشابك الاسترفاد ذاتي من المقدس الإسلامي، على مستوى الموقف الرسالي لكل منهما، – النبي والمستشار – فقط ليؤنس عود الهاتف ويثني على صفاته التجسسيّة الموافقة لتداعيات الفاعل أحال تناص الفكرة إلى لعب لفظي لسد فجوة معرفية في النص، تجلي مفارقة بين الطرفين.

3– الاحتواء:

يسترفد الكاتب من قصة يونس – عليه السلام –، بقصدية تصعّد الحدث، وتلحّ على استغراق الآخر، بتهيؤ إمكانية الاتصال الأبدي؛ فالفاعل يرغب في إبقاء التواصل بالذات الأخرى فعلا وحلما؛"عرفت لحظتها أن أولغا، تحبني، وإنني سأسكن بها إلى يوم يبعثون"،[2] وذلك انبثاق من المرجعي في النص القرآني؛ " فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ."[3] فحمولة المقدس الرسالية، تفارق تهويمات الفاعل الآنية، إذ جدل العلاقة بين أولغا– الحلم – وفجرية – الراهن– أجلى المفارقة التي تجعل من الفاعل، سكنا للعنة ملاحقة دائمة، من أولغا[4] الحاملة لراية حمراء، يظل مكان انتصابها معلما أثره في نفسه، أو لأن ترجمة أعماله – المؤلف – إلى الروسية ضمن له حيزا دائما في صفحات الثقافة الروسية.

4– متناصات أخرى:

إن استقطاب المرجعي إلى بؤرة تحرك الفاعل، كان تراصا لرغبات الكاتب في خلق فاعل نموذج بمتناصات عشوائية، في راهن انتقالي حكمته عبثية الرؤية المسقطة على بنيات النص. ومن ثم كان حضور الرمز الديني؛ عبثيا أيضا، يرد في صيغ من التراكمات المعرفية، فغائيته تشريح النماذج الفاعلة والمتفاعل فيها وبها،

---

[1]– سورة الصافات، الآية 142– 144.
[2] – وطار، تجربة...، المصدر السابق، ص. 180.
[3]– سورة الصافات، الآية 142– 144.
[4] – أولغا؛ مستشرقة روسية مترجمة.

في راهن تحكمه حلقات من رؤى متباينة، إذ تنبثق دلالات مرجعية بنصوصها، ترمي أحد المتمركزين في مقاعد السلطة بسلبية المواقف، فتخلف رغبة إقصائه من طرف الفاعل – المستشار – فلا يتردد عن نعته "تبت يدا أبي لهب، ما أغنى عنه ماله وما كسب".[1]

وعلى مستوى آخر من التعالق مع المرجعي، في بناه التصاعدية، يصور الفاعل حدث الخطيئة التي جعلت الزهرة؛ "تتدلى في هذه اللحظة، بحبل في جيدها".[2] وفيه إسقاط على من تضطرها الحاجة إلى أصحاب المكاتب، وتلك مقايضة انتهاكية لقيم المواطنة، تجلي التحكم في مصير الآخرين، ومن ثم إقصائهم من قائمة الصلاحية الاجتماعية.

والمؤلف عبر كل هذه المساحات يستنطق المرجعي وفق عبثية الاستدعاء، وخرق المعادل المفترض؛ فالعمود لا يفتأ يضحي مقدسا؛ "ونفخنا فيه من روحنا،[3] فقط لأنه خزان أمين لمعلومات متعددة اتجاهاتها ومنابعها.

سادسا، الشاعر بين الدّهاليز: في "الشمعة والدهاليز"

1- إيذان السقوط:

إن فضاء الشاعر الانعزالي، جعله عرضة لمجموعة تحولات، تفتح أمامه بوابات تساؤلات، تعمدها المؤلف، ليستبطن ذات الفاعل؛ الذي يسعى لتحقيق وجوده كفرد مثقف، يملك رصيدا من التجربة، أهله لرفض بعض معطيات الراهن، وما ممارسته للمرفوض، إلا فعلاً بلا ضابط؛ "من الذي أوصلني إلى هذه المواصل؟ هل كانت هي السبب؟ وتجلت له بعينها الدعجاوين اللتين تحمل نظراتهما إيحاء متواصلا باستغاثة"،[4] أكانت "الشجرة التي أكل منها آدم وحواء لعنة أبدية بالغواية؟"[5] إذ التقاطع القصدي مع قصة آدم–عليه السلام–وهو يقدم عن علم بالمحظور، فيتناول الفاكهة المحرمة، فيه امتصاص لبؤرة الحدث، يحرك به الفاعل في دائرة المرجعي، وهو

---

[1]– وطار، تجربة...، المصدر السابق، ص. 191.
[2]– المصدر نفسه، ص. 125.
[3]– المصدر نفسه، ص. 187.
[4] – الطاهر وطار، **الشمعة والدهاليز**، (الجزائر: منشورات التبين، د ت)، ص. 30.
[5]– المصدر نفسه، ص. 137.

إيذان بأن السقوط يكون بترك الثوابت، كأن الفاعل بوقوعه ضحية الصراع الايديولوجي، نتيجة معلنة مسبقا.

سابعا، التظلل بالنموذج في "الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي:"

1- سؤال الغياب:

عاد الولي بعد غيبة، لا يدري كم استغرقت، "قد تكون لحظة، وقد تكون ساعة، كما قد تكون قرونا عديدة"،[1] وتلك فجوة نصبة تحرك مسار الأحداث، وتستدعي مخزون الذاكرة، بتحليقات متواصلة، تتعدى التخيلي المنطقي، فربما" ظهر أولياء طهر آخرون، عمروا هذا الفيف الرهيب، ليعلو ذكر الله"،[2]ويبقي ذلك تبريرا تهويميا، يسد فجوة الغياب التاريخية لحياة الولي، ويربط توتر الأحداث، بتوتر رؤية الفاعل – الولي –.

ومن ثم كان التآلف مع المرجعي، في قصة الكهف:" وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا."[3]

فالامتصاص من النص المرجعي، قام على أساس فجوة العودة الفجائية، وترك معرفتها للافتراضات التي تمد خيط التواصل بين شقي فجوة الغياب، كأن التاريخ عند المؤلف يعيد نفسه بمصداقية قيامه على المقدس، والصراع الدموي الذي اضطر أصحاب الايدولوجيا الإسلامية إلى الاختفاء بصورة ما، طالت مدته، وتعددت أقطاب مخططي الواقع السياسي – الاجتماعي، فكانت العودة الضوضائية لهؤلاء، إلى واقع غير الذي حاولوا صنعه.

2- لماذا الزيتونة؟

يسترفد الكاتب مثيراً – الزيتونة – لا يمتلك صوغا ثابتا لأبعاده، فالفاعل – الولي – توقفت به العضباء "فوق التلة الرملية عند الزيتونة الفريدة في هذا الفيف

---

[1]- الطاهر وطار، **الولي الطاهر يعود الى مقامه الزكي**، (الجزائر: منشورات التبين، د.ت.) ص. 11.
[2]- المصدر نفسه، ص. 13.
[3]- سورة الكهف، الآية 19.

كله"،[1] والزيتونة تتشرب بعدها الدلالي من المرجعي في احتمالية اللفظة في القصص القرآني؛ "غصن الزيتون الذي عادت به الحمامة التي أطلقها نوح – عليه السلام – من السفينة، لترتاد حالة الطوفان، فلما عادت ومعها هذا الغصن، عرف أن الأرض انكشفت وانبتت" .[2]

والكاتب بذلك يعمد إلى رؤية قيمية للراهن، يريد بها رسم معلم لنهاية فترة الخطاب المشحون بالفوضى، والمصحوب بالموت، كأن عودة الولي كانت مرتبطة بحضور معلم يؤمن له الإقامة، ويكسبه حق وحرية القيادة، وهي أيضا دلالة إشعاعية لبيت المقدس،[3] رغبة من المؤلف في السمو بالفضاء الجغرافي الذي يحتمل فيه وجود المقام الزكي، ومناورة منه في معانقة المقدس الذي يمنح الولي ومقامه مجالا من الحضور الرسالي.

3 – التوكل:

عاد الولي متلهفا إلى مقامه، لكنه تاه وأخطأ وجهته؛ "لكن هذا الفيف أين يقع...،"[4] فقفز إلى ظهر العصباء، يتمتم كأنما يرجوها الانطلاق؛ "باسم الله مجراها ومرساها، خفضت العضباء أذنيها... وراحت تخب بحماسة تواصل طريقها نحو القصر."[5] إنه إعادة إنجاز لمشهد نوح – عليه السلام – وهو يأمل في النجاة؛ بمن آمن معه، بركوب السفينة؛ "وَقَالَ ارْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ"، [6] إنه التآلف بين الموقفين؛ سعيا إل النجاة بمقصد بها، أثرى فعالية امتصاص المرجعي، بإيجاد ملامح التماثل في التوكل والسعي، توسما في مخرج من تيه بدأ يتحسس بوادره.

---

[1] – وطار، الولي الطاهر...، المصدر السابق، ص. 11.
[2] – قطب، المرجع السابق، ص. 3932.
[3] – المصدر نفسه.
[4] – وطار، الولي الطاهر...، المصدر السابق، ص. 19.
[5] – المصدر نفسه، ص. 19.
[6] – سورة هود، الآية 41– 42.

4 -الاغتيال:

والفاعل – الولي – في إحدى تحليقاته يعرج إلى القاهرة، ويكون شاهدا على محاولة اغتيال الأديب نجيب محفوظ؛ "ها هو قادم يمشي الهوينى، كان يتماسك كبنيان مهدود، ترى فيم يفكر؟ لأمت حينئذ، لأموتن ذبحا.

"افعل ما تؤمر به، ستجدني إن شاء الله من الصابرين".
انطلق الخنجر من يدي– يد صاحبي، يد السهروردي الحديث.
سمعته يقول إن الله قادر على خلق نبي آخر بعد محمد – صلى الله عليه وسلم – وسال الدم. اغتنمت الدنيا، تكدر ماء النيل فدى الله مصر والعرب والمسلمين بذبح عظيم".[1]

إنه مشهد تتولد فيه طاقات انفعالية، يحيل إلى حادث الموت الذي وقف على حافته اسماعيل– عليه السّلام – في القصص من قوله تعالى؛ " فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يا بني إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ.. وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ."[2]

فالمؤلف يقصد إسقاط المقدس على شخصية الأديب نجيب محفوظ، بتوليد نص جديد، يكسب محيط الفاعل مصداقية الحضور القيمي، مع التآلف في الدافع ومآل الحدث، كأن أيديولوجية المؤلف خوّلت له تحوير المرجعي كحق رؤيوي للواقع، فأصحاب الفكر الإسلامي المتطرف، يمنحون أنفسهم الحق في اغتيال الآخر، رفضا لأفكاره ولا مانع أن يكون الأديب نجيب محفوظ نبيّا آخر، باستدعائه حديث الرسول – صلى الله عليه وسلم – بمعياره الإيديولوجي؛ "علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل."

ومن ثم فحادث الاغتيال الفاشل، الموازى بحادث الفداء – مع المفارقة الرسالية بينهما – يحمل قضية تتشابك فيها العلاقات، فتؤول إلى إشكالية واحدة؛ اسماعيل –عليه السلام – والسهروردي "الشهيد" ونجيب محفوظ؛ رموز لمحاولات الترصد والموت.

---

[1] – وطار، الولي الطاهر...، المصدر السابق، ص ص. 56– 57.
[2]– سورة الصافات، الآية 102– 107، وانظر، ابن كثير، المرجع السابق، ص. 124.

5- عتبة الانطلاق:

بعد طول بحث، يتوقف الفاعل الولي، ليجسد صلته بربه من جديد، فيصلي ويدعو ربه شاكرا؛ "رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ،"[1] ويزيح عن جسده ما يجده من جراح، اندملت وهو يمرر الماء على كامل جسده، ويبقى متعطشا للغنى؛ غنى المعرفة ولمس الحقيقة؛ معرفة مكان المقام الزكي، وإجلاء حقيقة وجوده أو انعدامه. إن المؤلف يحاور موقف موسى-عليه السلام- وهو يشكر ربه، بعدما ألم به من طول مسار في صحاري لا معلم فيها؛"" فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ"،[2] وكان أن أفاض الله على موسى - عليه السلام - بلقاء الفتاتين، وأفاض على الولي بانطلاق العضباء نحو قصر قد يكون مقاما. فقوة الإحالة إلى المرجعي بقصدية التآلف تمنح الفاعل قدرة على التحكم في مصيره الآني، كأن الراهن السياسي الاجتماعي، يمنحه من حين لآخر فرص معانقة الأمل في تجسيد التعبير عن الهوية، وتحقيق وجودها.

6- الانتقال المرفوض:

في مشهد تصويري، يقوم على امتصاص المرجعي؛ تتمثل البنت المقيمة بالمقام المفترض كائنا له بعد أسطوري، تبدي استجابة لرغبات؛ تمتد إلى بسط السلطة، "في اللحظة الواحدة، وقبل أن تعيد طرفك إليك، تكون من خلال الأقمار التي تجوب الفضاء حيثما شئت، أغمض عينيك يا مولاي، وسأحملك معي من خلال...إلى مختلف بقاع العالم، لعلها مكيدة من المكائد التي تسلحت بها لتغويني لم يشأ أن يفعل مارجته"،[3] إنه التنامي إلى المرجعي، في قصة سليمان-عليه السلام- مع أحد العفاريت الذي جزم على إحضار عرش الملكة بلقيس؛ " قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ" .[4]

---

[1] - وطار، الولي الطاهر...، المصدر السابق، ص ص. 56 - 57.
[2]- سورة القصص، الآية 24، وأيضا انظر، بهجت، المصدر السابق، ص ص. 191 -192.
[3] - وطار، الولي الطاهر...، المصدر السابق، ص ص. 87- 88.
[4] - سورة النمل، الآية 40.

إن المؤلف يحرك المرجعي بقصدية تخالفية، تمنح الفاعل بعض التجاوب مع الراهن الذي يستشعر خوفا مما آل إليه من تطور تكنولوجي، فيمر بلحظات شد انفعالي، تنتهي به إلى رفض العرض، وذلك جانب من تفكير ولي، يؤول ويرجح فكرة دون أخرى، أكثر مما يطبق ذلك منهج حياة مميز، يسفر عنه راهن آخر.

7- الإغراء و الرفض:

رفض الفاعل – الولي – عرض الانتشار، الذي طرحته الفتاة، لكنه يقف مرة أخرى أمام عرض مغر، فاقدا حزم الأولياء الذين لا يركبون محرما ولا يأتونه،[1] فلا هو متبع منطق العقل، ولا هو ملب لنداء الإغراء، تتجاذبه ثنائية التناقض الفعلي، وحمولة المهمة؛ مهمة الولي الإنقاذية؛ فلا هو نزيه فيما يضمر، ولا هو مقبل على المرفوض، فيتجاذب بين طرفي نقيض في مشهده مع بلارة:

"يا مولانا الطاهر، النسل الذي أنجبه وإياك، هو نسل يخص هذه المنطقة فقط...
هيا يا مولاي هيا.
هيت لك.
أستغفر الله العظيم...
هيت لك.
توقفي يا سجاح.
انتصب الولي الطاهر، بينما هي تتقدم...
يا خافي الألطاف نجنا مما نخاف
ومما تخاف يا مولاي.
مم أخاف؟ سأل الولي الطاهر أيضا نفسه، فاكهة وهبها المولى، أمد يدي إليها أقطفها، وهذا كل ما في الأمر. فلم الخوف؟
ربما فكر آدم هكذا، بدأته الغواية من هذا الجانب فيه، جانب تأجيل حسرته وأسفه وتذار إلى وقت آخر...
كاد الولي الطاهر يلين، فقد تخلص من الحية...
أمسكها بقوة من كتفيها، يدفعها إلى الخلف محدقا في وجهها..."[2]

---

[1]- أسين بلاثيوس، **إبن عربي – حياته ومذهبه**- ترجمة، عبد الرحمان بدوي، (بيروت: دار القلم، 1979)، ص. 202.

[2] – وطار، الولي الطاهر...، المصدر السابق، ص ص. 89 – 93.

إنه تقاطع قصدي مع قصتي آدم و يوسف – عليهما السلام[1] – فيه تحول كشفي؛ عن إقدام آدم على الفاكهة المحرمة، ورفض يوسف لإغراء امرأة العزيز، يعتق نوايا الفاعل من ضغط إطارها العرفي، ويستبطن الاغراء دواخله، ويكاد يرمي به إلى الاستسلام؛ فهو أمام صراع محتوم، يحرك فيه المعتقد فيلجأ إلى تبرير الإقدام والإحجام، وينتهي إلى رفض الحافز المغري – الفاكهة المحرمة – بعد معركة، انتهت بتغييب بلارة، والمؤلف بذلك يمتن تشكيل الحدث برؤية فنية؛ يتفاعل فيها المرجعي بمصدريه، فيمنح الفاعل استمرارية الوجود، فهو تصوير صريح لراهن تتجاذب سلوكات أصحابه تناقضات، تفقدهم مصداقية القيادة الفعلية.

8- التيه:

لم يكن الاتحاد مع بلارة، ولم تكرر قصة النشأة الأولى؛ قصة آدم وحواء – عليهما السلام – وكان العقاب تيها إذ رفض الفاعل – الولي – العرض عن تردد، فكان الفعل الموازي له؛ رميا من داخل المقام إلى تيه ممتد، حيث الغربة والوحشة،[2] وذلك قطع الانتماء للمكان – المقام –، إذ كلما كان المكان مرتبطا بالمعتقد والعرف، كان الانقطاع عنه تيها، يستدعي قصة التيه الكبرى لبني إسرائيل، حين رفضوا دخول "أريحا"خوفا من أهلها، فحكم عليهم بالتيه وتحريم المدينة عليهم؛ "قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ".[3]

إنها المشابهة والمفارقة مع المرجعي؛ فتيه الفاعل في راهن هشت فيه بعض الثوابت، معيار لإيديولوجية كثرت حولها تأويلات إمكانية البقاء والقيادة، وفتحت مجالات التهويمات؛ فما كان إلا العجز "الماء قدامي فلا ألحقه"[4] فالمؤلف يسقط همّة الفاعل المفترضة في شخصه القيادي، فهو أيضا قد حرم عليه دخول المقام المفترض، فالمتناص له فاعليته الملامسة لمسار الحدث.

---

[1]– المصدر نفسه، ص. 118.

[2] – المصدر نفسه.

[3]– سورة المائدة، الآية 2، وانظر النجار؛ المصدر السابق، ص ص. 227 – 228، وانظر، ابن كثير، المصدر السابق، ص ص. 287 – 290 .

[4]– وطار، الولي الطاهر...، المصدر السابق، ص. 118.

9-الولي: نسيج مرقع

إن تشرب شخصية الفاعل – الولي – من قصص الأنبياء في القرآن الكريم، تفجر فيها تداعيات الإيهام بحمولات معرفية، قصد منها مصداقية الحضور والقيادة التي تنتهي إلى اللامصداقية، وفق الانزلاق السلوكي المتكرر، كلما عاش حضورا جديدا بمعايير جديدة، فهو نموذج "لبطل الزمن الحديث، مرآة لزمن غادرته الحكمة، يلتقي فيه بوعيه الذاتي ولا يلتقي بكلية اجتماعية توافقه، ويحث السير إلى استقلاله الذاتي ويخلط بين الاتجاهات جميعا"،[1] ومن ثم تفتح إشكالية الاسم الصفة،

– الولي الطاهر– أهو الطهر العقائدي الإسلامي الذي يبدو كل مرة، بمراسيم ديبلوماسية؟ أم الطهر الإيديولوجي – الاشتراكي – الذي ما كان يحمل معطياته؟ ما تبرير حلول لعنة حضوره الميتافيزيقي، بامتلاك سلطة التحكم أحيانا، ومن ثم لعنة اختفاء المقام؟

إن الفاعل، وهو يصل إلى نهاية كانت هي منطلقه، إنسان "هجر راضيا إلهه، يذهب إلى فضاء ضيق وواسع في آن"،[2] فحضوره قام على أساس التحول وعدم الثبات، يتجاذبه طرفا نقيض؛ الواقعي والغيبي، الغياب والحضور، الإيديولوجي الإسلامي والطارئ المغري، وهو في كل ذلك أسس لحضوره بالمرجعي المعلن في سلوكه والمشكّل لبعض شخصيته، والذي أراده المؤلف دلالة على موقع طبقي يحمل معطيات مختلفة ومتناقضة، اعتمادا على توظيف المناصات والمتناصات.

خاتمة:

التناص مع القصص القرآني ونصوصه، نتيجة معرفية للذاكرة القرآنية للمؤلف، وهو في أكثره اجترا ري، لم يثر النصوص، بقدر ما ساعد على سد فراغات سردية كما في "الزلزال"، وفراغات تصويرية كما في "الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي،" وكلها استعارات تعدم التواصل الروحي بين البطل والعقيدة، وتساهم في فوضى فكره، بصفتها ترسبا من ترسبات عديدة، للمرجعي المتعدد، كما في "تجربة في العشق"، وعملية التناص بهذه الطريقة، تنأى بالدين باعتباره أساسا

---

[1]– فيصل دراج، **نظرية الرواية والرواية العربية**، (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 1999)، ص.14.
[2]– المصدر نفسه، ص. 16.

للبناء الفكري الثقافي، وليس مجرد لبنة مكملة للبناء، وهذا ما جعل الولي في "الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي،" لا يستطيع تحقيق السلطة الفعلية في عودته إلى المقام، وكل محاولاته لذلك، لم تؤثر في أحد من الموجودين، ولم تثر عندهم الطرح البديل، وذلك نتيجة افتقاد المجتمع لأهم دعائمه.

فالتناص مع القصص القرآني، بقصد أو دونه، كثيرا ما ضيق من حجم حمولة الدلالة، فلا تنتج عنها إشارة تأويلية ماضية أو استشراقية بافتقادها فعالية إثراء النص بصفته محتملا معرفيا لتوقعات القارئ، التي تنطلق دائما من قناعات المؤلف النصية والافتراضية، والتي يجيد نسيجها عبر السياقات السردية التي تبقى الخيط المعرفي واصلا بينها ، ما يمكن أن توصله من بعد الرؤية، وتكشف أن حكاية الواقع قد ترد بسياقات متشابهة ومختلفة تعكس توقعات الانتماء الفكري للمؤلف لكن كل ذلك لا يخرج في معظمه عن الاشتراك الإنساني في الهزيمة والتفكير في حلول قد تكون منافذ للنجاة، أو معادلات إبداعية قد تحمل بعض الإفضاء عن ذلك.

ببليوغرافيا:

القرآن الكريم؛ رواية حفص، دار المعرفة، سوريا، 1416هـ

1- ابن كثير اسماعيل بن عمر، **قصص الأنبياء**، بيروت: دار ابن حزم، 2002.

2- القمري، بشير. **شعرية النص الروائي** –قراءة تناصية في كتاب التجليات- د م ن: شركة البيادر، د ت.

3- المراغي، أحمد مصطفى. **تفسير المراغي**، بيروت: دار إحياء التراث العربي، د ت.

4- النجار، عبد الوهاب. **قصص الأنبياء**، بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، د ت.

5- بلاثيوس آسين. **ابن عربي –حياته و مذهبه**- ترجمة، عبد الرحمن بدوي، بيروت: دار القلم، 1979.

6- بهجت، أحمد. **أنبياء الله**، ط7، بيروت: دار الشروق، د ت.

7- دراج، فيصل. **نظرية الرواية والرواية العربية**، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 1999.

8- قطب، سيد. **في ظلال القرآن**، ط 12، بيروت: دار الشرق، 1986.

9- مسلم. **صحيح مسلم بشرح النووي**، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1981.

10- وطار، الطاهر. **الزلزال**، ط 3، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1984.

11- وطار، الطاهر. **الحوات والقصر**. ط 2، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984.

12- وطار الطاهر. **عرس بغل**، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1982.

13- وطار الطاهر. **العشق والموت في الزمن الحراشي**، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1984.

14- وطار الطاهر. **تجربة في العشق**، الجزائر: المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، 1989.

15- وطار الطاهر. **الشمعة والدهاليز**، الجزائر: منشورات التبيين، الجاحظية، د ت.

16- وطار الطاهر. **الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي**، الجزائر: منشورات التبين، الجاحظية، د ت.